

ميراثنا من شهر رمضان



وبعد ذلك، يطرح السؤال الذي ينبغي أن نطرحه بعد أدائنا لأية عبادة، وهذا ما ينبغي أن نسأله الآن، ولم يبق سوى القليل على انقضاء هذا الشهر: مَاذَا بقي لنا من شهر رمضان؟ أيّ تغيير أو أثر تركه في حياتنا، أو لنقل: أيّ إرث سيتركه فيينا بعد أن يغادرنا؟ وهذا السؤال هو الذي ينبغي أن نطرحه بعد كلّ عبادة، فلا قيمة لأية عبادة إن لم تترك أثراً.

إنّ إرثنا من شهر رمضان، ينبغي أن يكون بأن نحافظ على مكتسباته، وعلى أجواه الروحية والعبادية والقيم التي زرعها فينا، وأن لا نقطع تواصلنا مع القرآن الذي حرصنا في هذا الشهر على أن نختمه مرّات عديدة، وأن لا نهجره ولا نلقيه، بل أن نستمرّ، وكما كنا في شهر رمضان، في تلاوته وحفظه وفهمه وتدارسه، وإن لم يكن بالقدر ذاته.

وميراث آخر من شهر رمضان، في أن نحافظ على الأجواء الروحية والإيمانية التي حرصنا عليها في هذا الشهر، بأن نذكر الله في السرّ والعلن، وفي آناء الليل وأطراف النّهار، وفي الدّعاء وأداء الصّلوات بأوقاتها، والاهتمام بصلاة الليل وأداء النّوافل.

ميراث شهر رمضان، بأن نستمرّ ببساط أيديينا بالعطاء والصدقات لعباد الله، وأن نبحث عنهم، فلا ننتظر أن يأتيوا إلينا ليبذلو ما وجوههم حتى نغدق عليهم من عطائنا، فمن صام، لا بدّ من أن يتعالى عن أنايّته، ويخرج من شرنقة ذاته، ليصبح عبداً باراً، ولا يوجد بره بلا تواصل وبلا تراحم.

ويبقى من ميراث شهر رمضان، أن نصوم بعده، لكن ليس الصيام عن الطعام والشراب، بل عن كل حرام وفبيح من القول والفعل، وكل خلق سيئ. فبعد شهر رمضان، نعود إلى الطعام والشراب، ليبدأ هذا النوع من الصيام، وأن نتابع تواصلنا مع أرحامنا ومع جيراننا.

هل كُتبنا من الصائمين؟!

إذاً، لابد من أن نتابع ما بدأناه في هذا الشهر في بقية الشهور، فشهر رمضان لم يرده إلا سبأناه أن يكون مجرد شهر من الشهور، بل هو سيد الأيام والليالي، ولا بد من أن تنعكس قيمه على بقية الشهور والأيام.

وبعد ذلك، أن ندرس مدى انسجامنا مع الهدف الذي من أجله كان رمضان، فشهر رمضان هو شهر التغيير، هو شهر إعادة صياغة شخصيتنا على الصورة التي يريدها الله سبحانه.

لقد كان القرآن واضحاً في دلالته، عندما بين الموردة التي لابد من أن تتصف بها حتى نكتب عند الله من الصائمين: (يَمَّا أَيْمَنَاهَا إِذْنِينَ آمَدُوا كُتُبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتُبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّفَوَّنَ) (البقرة/183). أمّا كيف يعرف الإنسان نفسه؛ هل بلغ درجة التقوى أم لا؟ فهو يتحقق بطرقتين:

الطريقة الأولى، هي بأن يعرض نفسه على الآيات والأحاديث التي تحدث عن المتقين وبذلك صفاتهم، للتأكد من اشتتماله على هذه الصفات. من هذه الآيات الكريمة: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذُونَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِذَا هُمْ كَانُوا فَبِمَا ذَلِكَ مُحَمَّسُونَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ الظَّالِمِينَ مَا يَهْجِعُونَ * وَبِمَا لَأَسْحَارَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْلَّهِ وَالْمَحْرُومِ) (الذاريات/19-15).

ومن الأحاديث الشريفة التي تتحدث عن صفات المتقين: «لا يكون العبد مؤمناً، حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشرير شريكه»، «لا يَكُونُ الرَّجُلُ تَقِيًّا، حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ مُحَاسَبَةً شَرِيكَهُ، وَحَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ مَلَأَ سُهُّهُ، وَمَطْعَمُهُ، وَمَشْرِبُهُ». ومن الحديث: «أنَّ أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم لك معونة، تذكر فيعينونك، وإن نسيت ذكروك، قوَّلونك بأمر الله، قوَّامون على أمر الله، قطعوا محبتهم بمحبة ربهم، ووحشوا الدنيا لطاعة مليكتهم، ونظروا إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى محبته بقلوبهم، وعلموا أنَّ ذلك هو المنظور إليه، لعظيم شأنه».

والطريقة الأخرى لتأكيد آثار شهر رمضان في نفوسنا، هي قياس مدى قربنا أو بعدينا عن الصفة التي تقابل التقوى، أي الفجور، وقد ورد: «إِنَّ النَّاسَ اثْنَانٌ: بُرٌّ تَقِيٌّ، وَآخَرٌ فَاجِرٌ شَقِيٌّ».

وصفة الفاجر تصدق على من لا يستحي أن يراه الله وهو يعصيه، هو لا يبالى بذلك. والصوم هدفه أن يعزز فينا الإحساس برقاية الله في كل مكان وزمان، وفي السر والعلن.

حتى لا تضيع مكتسبات الشهر!

ثم، وبعد أن نحرص على بلوغ الإنجازات، لابد من أن نتوقع أن نضيئ ما كسبناه في هذا الشهر، ونحرم مما عشناه من حالات التقوى، بغيبة هنا، أو بکذب هناك، أو بظلم إنسان، أو بأكل باطل، أو بإساءة إلى عرض، أو غير ذلك مما يoso به الشيطان أو أنفسنا الأمارة بالسوء، أو عصباتنا أو

انفعالاتنا، بحيث يعود الإنسان مفلساً، كالذين تحدث عنهم الحديث الوارد عن رسول الله عليه وآله وسلم)، حين قال: «أَرَدْ رُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»، قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَ مَنْ لا درْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعٍ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مَنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَوةٍ وَصَيَامٍ وَرَكَابٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَدَمَ هَذَا وَقَدَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَلَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَدِيتُ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخْذَ مِنْ خَطَابَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»، ويكون حاله في ذلك كالتي تحدث أَنْ سُبحانه عنها، أَنَّهَا كانت تغزل غزلها وتبقى في ذلك إلى الصباح، وبعد أن يصير كاماً ويستفاد منه، تعود فتنفسه: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَاهُتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَزْكَانَهُ) (النحل/ 92). والثكثرون قد يكونون كذلك، يضيّعون ما كسبوه سريعاً، وهذا هو الخسران المبين.

ويبقى علينا، وفي هذه الأوقات القليلة من هذا الشهر، أن نستدرك تقصيرنا فيه، وأن نطمئن إلى أنَّ أعمالنا بلغت موقعها عند الله، وأنَّه قد قبل عملنا، أن نتوجّه إلى الله لنقول له:

«اللَّهُمَّ أَدْعُكَ عَذَابَ حَقٍّ مَا مَضَى مِنْ شَهْرٍ رَمَضَانَ، وَاغْفِرْ لَنَا تَقْصِيرَنا فِيهِ، وَتَسْلِيمَهُ مِنْهُ مَقْبُولاً، وَلَا تُؤَاخِذْنَا بِإِسْرَافِنَا عَلَى أَرْفُوسِنَا، وَاجْعَلْنَا مِنَ الْمَرْجُومِينَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْمَهْرُومِينَ».

نُسأَلُ الله سُبحانه أن يجعلنا من المقبولين الذين يستحقون التهنئة، ولسنا من المحروميين الذين يستحقون التعزية، كما كان الإمام علي (عليه السلام) يخرج في آخر شهر رمضان ليقول: «يا ليت شعري، من هذا المقبول فنهنّيه، ومن هذا المحروم فنعزّيه».